

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة

تيزي وزو

Tribal women in light of major social changes - A typical study in the city of Tizi Ouzou

حمداني مالية¹¹ جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، malia.hamdani@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/24 تاريخ القبول: 2023/09/11 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص:

إن الدراسات الاجتماعية حول المرأة ليست شيئاً جديداً في علم الاجتماع، وبالخصوص في علم الاجتماع الريفي، فقد لقيت دراسات حول المرأة عناية كبيرة واهتماماً بالغاً من طرف عدد من الباحثين الاجتماعيين، النفسانيين والأنثربولوجيين، ولقد تشعبت مواضيع هذه الدراسات فمنها من اهتمت بمعرفة المراحل التاريخية لتطور الوضعية الاجتماعية للمرأة القبائلية قبل وبعد الاستقلال، والمترتبة على سلسلة من التمييز والفوارق الاجتماعية بين الجنسين، منهم في مجال الأدب خاصة قصص الحياة أمثال: فاضمة أيت منصور Fatma Ait Mansour، طاموس عمروش، جميلة ديبش، محمد ديبومهم مؤرخين أبرزهم (هانوتوا ولوترنوا ومارسيل موس) Marcel Mauss، Loutrenaux، وكذلك اثنوغرافيين وكتاب: شانتريو، Chantreaux، ألبرت كاموس A Camus، مولود فرعون M Feraoun، سيعمار بوليفة، لاکوست دوجاردن Lacoste، إيف بوسكيه YBousquet، بيار بورديو Pierre Bourdieu، مولود معمري، مالك صياد، فاضلة مرابط، مصطفى بوتفنوش، تاسعديت ياسين، سالم شاكر، كلودين شولي وآخرون ساهموا في معرفة كل ما يتعلق

بوضعية المرأة القبائلية قديماً وحاضراً في محيطها الأسرى وفي جميع المجالات والثقافية بفعل التغير الاجتماعي حيث يلاحظ توسعاً ملحوظاً لأدوار المرأة القبائلية في جميع المجالات.

لكن هل هذا التوسع له طابع إيجابي، حيث خفف من شقاء وأعباء الحياة اليومية التي كانت تعيشها سابقاً والتي سمحت لها بتغيير أدوارها التقليدية بأخرى حديثة وساعدت على الارتقاء بمكانتها الاجتماعية، أم أن المرأة القبائلية أصبحت في وضع مولدة ومستهلكة، وأن آفاقها انحصرت ووضعتها الاجتماعي تدنى دون أن تشعر بذلك .

كلمات مفتاحية: المرأة، المكانة، التغير الاجتماعي، المساواة، الأحوال الشخصية.

Abstract: Social studies on Kabyle women are not new in sociology, particularly in rural sociology, their studies have received great attention from a number of researchers in social sciences, psychology and anthropology such as: Abdelmalek Sayed, Pierre Bordeaux and Fatima Ait Mansour, Si Amar Boulifa including historians such as Hanoteau and Marcel Mauss, as well as ethnographers and writers such as Chantreaux, A Camus, M Feraoun, C Lacoste de Jardin, y Bousquet, M Boutefnouchet, Tassadit Yacine, M Mammeri and others. Some of these studies focused on the unfavorable status of Kabyle women within the family resulting from a series of discriminations and social differences between the sexes.

Some recent studies show a clear improvement in the status of Kabyle women, it is considered that the evolution of Kabyle women is closely linked to the improvement of social, economic and cultural relations due to social change. But does this expansion have a positive character, because it has eased the difficulties and burdens of the daily life in which she previously lived, which allowed her to change her traditional roles with modern ones and helped to improve her social status, or has the

Kabyle woman become in a position of procreator and consumer, and that her horizons were confined and her social condition fell without feeling it.

Keyword: Women, status, social change, equality, personal status

***المؤلف المرسل: حمداني مالية**

1. مقدمة

لقد عرف المجتمع الجزائري منذ خمسين سنة تغيرات مجتمعية كبيرة انعكس ذلك على المكانة الاجتماعية للمرأة الجزائرية عامة والقبائلية خصوصا فبرزت فعاليتها في مختلف الميادين سواء تعلق الأمر بالمدرسة أو الأسرة أو العمل أو الحياة السياسية، بفعل عملية التغير الذي أثر على أدائها.

العناصر التي نتناولها في هذا المقال أولاً الحديث عن المرأة القبائلية بين الماضي والحاضر وكان إختيارنا منطقة القبائل ليس عبثا كونها منطقة تجمع بين المجال الحضري والريفي، ولهذا يمكن بحال من الأحوال معرفة حال المرأة اليوم سواء كانت قبائلية أو عربية أو أجنبية إلا بمعرفة وضعها في الماضي مما يستدعي معرفة تاريخ المرأة خاصة في وسطها الاجتماعي وهو تاريخ ليس منفصلاً عن تاريخ المجتمعات البشرية، ففي الحضارة المصرية كانت للمرأة مكانة عالية تعلو أحيانا ألله الذكور منها العدل (معات) وإلهة الطب والصحة والموت (سخت) وإلهة الحكمة والمعرفة (نوال السعداوي، ص 20) (إيزيس) وكما يقال في ثقافتنا الشعبية "الخير امرأة والشر امرأة". ثانياً مسيرة المرأة القبائلية للتغيرات والتحولات المجتمعية التي عرفتها الجزائر ومنطقة القبائل بالتحديد كبروز الأسرة النووية، الهجرة، تعميم التعليم، العمل بالأجرة وغيره، والتي جاءت كنتيجة للسياسات العمومية المتبعة من قبل الدولة منذ استرجاع السيادة الوطنية الى يومنا هذا والذي انعكس على دور المرأة الجزائرية عموماً والقبائلية خصوصاً في

حمداني مالية

مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وثالثاً تمكين المرأة الجزائرية والقبائلية خاصة في ظل قانون الأسرة والعمل على الحفاظ على كل المكاسب التي تحققت منذ الاستقلال الى يومنا هذا ويعرّف هذا التغير الدكتور زكي حسن الليلة وياسين طه طاقة "التغير هو التحول الذي يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في تركيبه وبنياته أو وظائفه" (زكي حسن، ياسين طه، 1987)

-هل تمكنت المرأة القبائلية فك قيود الماضي والتحرر فعلياً والارتقاء بمكانتها الاجتماعية؟

-كيف تبدو مسيرة المرأة القبائلية للتغيرات الحاصلة في الجزائر بعد الاستقلال، هل أصبح حضورها فاعلاً في مسار التغير والتنمية بصفة شاملة؟

-هل دعم وحرر قانون الأسرة المرأة الجزائرية فعلاً وسأوى بين الجنسين في الحقوق والواجبات خاصة في منطقة القبائل أم أبقى على مكانتها التقليدية ؟

المرأة القبائلية في وسط عائلتها قديماً:

لم تحظ المرأة القبائلية بأي إهتمام من قبل عائلتها منذ صغرها، فعندما تبشر الأسرة بولادة بنت يكون ذلك اليوم يوم شؤم وبالأخص على الأم، في حين يحدث العكس عندما يكون المولود ذكراً، فيطلق على التي تنجب الولد بـ " لبؤة lionne فيضع لها brocheavzim " أعلى فستانها رمزاً وتعبيراً عن القوة والكبرياء والنجاح. (Laura Mauzaia, 2006, p.67)

وتقوم المرأة وهي فتاة عمرها خمس سنوات بدور الأم حين غيابها، فتكون مربية وتقوم بأشغال البيت وتعتني بذلك بكل أفراد البيت من أكبرهم سناً إلى أصغرهم، في حين لا يطالب الأولاد (الذكر) بهذه الأعمال، فالرجل لا يصلح أن يغسل الصحون حتى وإن كان الصحن خاصاً به وكذلك ملابسه". (الوحش أحمد، 1998، ص 222)

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو

إن من الصفات التي تتميز بها المرأة القبائلية والتي تتلقاها من أسرتها هي مبادئ الحرمة والشرف والحشمة والطاعة كما عبرت عن ذلك Germaine Tillon: "شرف العائلة هي التي تتحمله، وهو هش، ولهذا السبب فإن عذرية الفتاة هي أمر يهم الإخوة أولاً"، (Tillon Germaine, 1982, p) ترسّخت في ذهنيها هذه المبادئ مما جعل شخصيتها محصورة في إطار الممنوعات حيث يفرض عليها سلوكات لا يمكن أن تتجاوزها، وبها تحدد مكانتها في إطار مجتمعها التقليدي الذي يحدد في إطار ثلاثة مراحل معروفة في هذه المنطقة بهذا المثل "كوني جميلة، صامته، وولودة". (Laura Mauzaia, 2006, p.51)

وكبداية لحياتها تمنع البنت من مخالطة جنس الذكر حتى وإذ كان أقرب أقربائها التي تعيش معهم إلا في إطار المحدود فيقال لها "إن الأولاد هم الأعداء"، فمنذ طفولتها إلى مراهقتها وحتى نضجها، تعاني الطفلة من المعاملة السيئة لها سواء من الإخوة أو أبناء العم أي من الذكور لأن المرأة بالنسبة لهم خطراً على شرفهم، وهذا بتدعيم من الأم حيث تلقن بناتها قيمة الرجل كما يتوضح بهذا القول: "تتعلم الابنة مبكراً جداً من فم والدتها الثمن الذي لا يضاهي للرجل" ولهذا كان الرجل يستغل مركزه لإظهار سلطته على المرأة في كل موقف يستدعي ذلك من الأب الذي له السلطة الكاملة على ابنته وصولاً إلى الأخ وابن العم وابن الخال، فكما تقول "نانا الجوهر" "مرا ثمحقورت" "المرأة محتقرة".

وكما تعبر عنه كذلك لورا موزاية نقلاً عن كل من G.Dugy et P.Ariés.

"كان أول واجب على أرباب الأسرة هو الإشراف والتصحيح، وقتل زوجته وأخواته وبناته إذا لزم الأمر، أرامل وبنات إخوته اليتامى وأبناء عمومته وأتباعه" كانت المرأة القبائلية الخادمة التي ترعى شؤون البيت بالمقابل تتلقى الحماية، حيث كان الرجل مكلفاً بالدفاع عن حقها والمطالبة بالثأر والغرامات حينما يعتدى عليها. فالمرأة تابعة للرجل ومنسوبة إليه وتحت حمايته ومسؤوليته ومسيرة

حمداني مالية

بأمره. بالخصوص كما تقول لورا موزاية "كل قوة الأسرة، بما في ذلك الذكر، تسعى جاهدة للمراقبة ومراقبة أدنى تصرفات وإيماءات الفتاة ؛ هذا قبل كل شيء لأنه يجب أن تحافظ على سلامتهم حتى الزواج، هذه العذرية التي هي الحامل للواء الأسرة بأكملها" ويعتبر إنجاب الذكور خاصة وسيلة تستعملها المرأة لإثبات وجودها وفرض مكانتها في العائلة، لأن هذا يجعلها تكسب مركزا اجتماعيا جديدا يسمح لها تعزيز مكانتها الاجتماعية داخل العائلة بزيادة مسؤولياتها والسلطة داخل البيت. (Laura Mauzaia, 2006, p.51)

لقد شهدت العائلة القبائلية تغيرات كبيرة، فانقسمت العائلة الممتدة الى أسرنواتية الذي انعكس على الدور الاجتماعي للأمهات الذي شهد تراجعاً، فنجد أن معظم الأولاد تركوا بيت العائلة للإنفراد بسكن خاص برفقة زوجاتهم فقط، حتى وإن كان المنزل يقرب منزل الأهل ما سبب الحزن والألم للكثير من الأمهات، حيث تبدى لنا نانا ذهبية 80 سنة قائلة: "تركني إبني وحدي، ولا أراه إلا نادراً، فلم يعد يهتم بي".

وبالرغم من وجود كنتين تعيشان مع أم الزوج في نفس البيت، إلا أن سلطتها أقل مما يمكن أن نتصوره بل تحاول الأم عدم التدخل في شؤون إبنها، بل تحبذ أن يكون له منزلا مستقلا وهذا نظرا للأعباء التي تقع على الأم في غياب الكنة التي تعمل بالأجرة وهذا ما أكدته نانا الجوهر قائلة: "لم أعد أستطع تربية الأطفال في غياب أمهم التي تعمل، وأحيانا لا تتقبل تصرفات العرائس "الكنتات" لأنها كما تقول دائما نانا جوهر ودعمتها نانا ذهبية "تفنيانين" "إنهن كسولات" ولا يحترمن التقاليد بل أصبحن اليوم "سفلزي" civilisée .

لكن رغم كل هذا تبقى المرأة المسنة رمزا، ويسعى كل واحد إلى كسب رضاها ولهذا تستشار في قضايا كثيرة كالزواج، إذ تمثل الماضي والحاضر. فهي

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو

تعدّ قدوة بفعل تجربتها في الحياة، فهي عاشت الماضي بأعرافه والحاضر بعصرنته، وهذا ما يجعلها مدرسة لا يستغنى عنها وعن تجربتها .

وضعية المرأة الجزائرية أثناء الاستعمار

إن حالة المرأة الجزائرية والقبائلية أثناء الإستعمار، هي من حال الشعب الجزائري الذي كان يعاني من أوضاع إجتماعية مزرية، دفعها ذلك للمشاركة في عملية التحرير والتحاقها بصفوف الثورة بشكل حماسي، لتكون سنداً للرجال في المقاومة كما عبر عن ذلك عبد القادر جغلول: "فكانت سنداً أخلاقياً مهماً للأزواج والأبناء المقاتلين، لقد عانت في الحرب من عاطفتها لأبنائها وزوجها وأبيها واستدرجت لتحمل مسؤولية رب العائلة الموجود مع رجال المقاومة في السجن أو مقتولاً... والكثير منهم شاركن مشاركة فعالة في الحرب" (عبد القادر جغلول، قسطون سليم، 1983، ص)

و تقبل المجتمع التقليدي القبائلي مساندة المرأة من أجل تحرير البلاد. فكانت شرائح النساء اللواتي شاركن في الكفاح تتراوح ما بين 15 سنة الى 50 سنة وما فوق، وكانت منهن متزوجات، فتعرضت الكثيرات منهن إلى تعذيب بكل أنواعه وحتى أن الكثيرات أستشهدنا وأخريات أصبنا ببعات تصل الى فقدان العقل بسبب وحشية طرق تعذيب العدو .

فكانت للنساء مهمات ومسؤوليات كثيرة في القرى أو في المعسكرات منها (المأوى والتموين، كما كنّ يجمعن الأموال والأدوية، في حين كان نقل الأكل إلى الأدغال يشكل خطراً عليهن، لهذا كانت مثل هذه العمليات بطيئة جداً، كما عبرت عن ذلك جميلة عمران: "الأعباء المنزلية مشتركة؛ غالبًا ما يتم تحضير المطبخ من قبل الجنود، لكن الخبز دائمًا ما يصنعه النساء " Laura Mauzaia, 2006, (p.85)

حمداني مالية

وكانت إستخبارات الإناث نادرة في الريف، فكانت النساء مثل سائر السكان يرشدون رجال المقاومة حول تحركات العدو ويقمن بأعمال الحراسة، كما تقول جميلة عمران في هذا الإطار نقلا عن فوزية دياب: "الآن، تراقب النساء الجرحى، وتحملهن على ظهورهن في حالة التأهب، ترقبوا. حشد المجندون النساء ويبدأ الجنود في اعتقال النساء وتعذيبهن" (Laura Mauzaia, 2006, p.86)

وضعية المرأة الجزائرية عقب إنتهاء الحرب التحريرية:

لم يكن أحد يتخيل أن المرأة "المحصورة في الحياة الأسرية والمستبعدة على العالم الخارجي يمكن أن تظهر وتلعب دورا رائداً في النضال، حيث بلغت ما يقرب من 3.10% من العدد الإجمالي للمقاتلين، من بينهم أكثر من 80% بالمئة من الفلاحات وكما تقول جميلة عمران نقلا عن فوزية دياب: "يمكن الانتظار حتى عام 1958 في خضم الحرب عندما تحاول السلطات الاستعمارية، في مواجهة التشدد غير المتوقع للنساء، التصالح بينهما". (Laura Mauzaia, 2006, p.86)

كل هذا سمح أن تولد نظرة جديدة مخالفة لما سبق تماماً عن المرأة، ولهذا كان الإعتقاد أن هذه المعطيات الجديدة للمرأة من خلال خروجها إلى ساحة الميدان، ومساهمتها الفعالة في الكفاح المسلح، سيكون لها شأن كبير بعد الاستقلال، فتتحرر بذلك من الممارسات التي كانت تحد من حريتها بفعل العادات والتقاليد والأعراف وهذا ما أكده "فرانزفانون" Frantz Fanon حيث يقول: "إنه إنطلاقاً من العنف الذي عاشته المرأة الجزائرية من خلال الكفاح، ستعرف وضعيتها تغيرات جذرية وثورية لا جدال فيها بفعل الوعي، سيكون ذلك دافعاً لتحول وضعيتها والسير إلى الأمام خاصة مع الاستقلال" (Franz Fanon, 1968)

لكن مع نهاية حرب التحرير واستقلال الجزائر، لم يحدث ما كانت تطمح له المرأة الجزائرية عموماً، عادت هؤلاء النساء اللواتي تصرف بعضهن مثل البطلات

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو
إلى منازلهن لإستئناف عملهن المعتاد في مجتمع لم يتغير كثيراً خاصة في الريف،
لأن مشكلة المرأة منحصرة في إطار الطابوهات (tabous) لا غير.
لكن خيبة الأمل كانت عند النساء اللواتي يعشن في المجال الحضري "المدينة"
والمهاجرات، اللواتي لم تكن ترغبن في تضييع المكسب النضالي على الأقل من أجل
تحسين وضعيتهن الاجتماعية من خلال المطالبة بالمساواة بينها وبين الرجل في
الحقوق والواجبات .

ولقد تبين ذلك من خلال ما ذكره رشيد بوجدر، ناقلاً عن أحد الجنود
بعد الاستقلال. "ماذا يمكنها أن تفعل غير الغسيل، والمسح، والشمع، والفرك،
والإنجاب، والمعاناة" (Laura Mauzaia, 2006, p.89). وبقي هذا الاحتقار
الذي يبرره سلطة الرجل على المرأة الجزائرية لمدة طويلة، لكن بفضل التعليم
والعمل دخلت في كفاح جديد يكمن في محاولة تغيير وضعها من خلال توعية
النساء الأخريات في جميع المناطق الريفية والحضرية وذلك بضرورة
المطالبة بحقوقهن الشرعية والمدنية وعدم السماح بتضييع المكسب الثوري .

المرأة العربية في الإسلام بين الإستبداد ومحاولة التحرر:

إن حال المرأة هو جزء من حال البلاد والحكم السائد فيها وما يضمنه من
حقوق وحريات وما يرافق ذلك من أداء للواجبات حيث أن المرأة عانت كثيراً من
سلطة و سطوة الرجل استغلها متاعاً للذة، لها الرق وله الحرية، له العلم ولها
الجهل، له الأمر والنهي ولها الطاعة والصبر.

كما يحدّ الحصار والأمية من مشاركة المرأة في الحياة الإقتصادية، كذلك
يحد من مشاركتها في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية وعلى هذا نشأت
تنظيمات نسائية تعمل في مجالات الخدمات الاجتماعية والعناية الصحية وتنظيم
الأسرة والدراسات والنشر والتوعية التي لم تنكر دوره المرأة الثوري في كل البلدان

حمداني مالية

العربية والإسلامية وقدنتج عن هذه المشاركة كسرو هزم الكثير من الممنوعات التي تجعل المرأة في وضعية ومكانة دونية.

صورت نوال السعداوي علاقة الرجل بالمرأة في المجتمع العربي على أنها أشبه ما تكون بعلاقة السيد بالعبد وترى أن تغيير وضعها مرتبط بتغيير المجتمع ككل، فغياب المساواة بينها وبين الرجل لا ينفصل على غياب المساواة بين الطبقات وبين الفرد والآخر. (نوال السعداوي، هبة رؤوف عزت، ص 31)

كما تقول "زاهية قدورة" في مجلة الفكر الإسلامي "إن الإسلام جعل الرجل والمرأة من نفس واحدة ولكنها عادت لتقول "إنما المرأة خلقت من ضلع عوجاء فإن تحرص على إقامتها لا تكسرهما قدرلها تعيش بها" (زاهية قدور، 1975، ص 14-26)

ويتساءل محمد الغزالي: "الإسلام متهم بإهانة المرأة، وإستضعافها... فهل في كتاب الله ورسوله ما يبعث على التهمة؟" فيقول "إن الإسلام سوى بين الرجل والمرأة في جملة الحقوق والواجبات وإذا كان هناك فروق معدودة فإحتراما لأصل الفطرة الإنسانية" ثم يضيف فيشير إلى الواقع المعاش بقوله "أن هناك تقاليد وضعها الناس ولم يضعها رب الناس دحرجت الوضع الثقافي والاجتماعي للمرأة واستبقت في معاملتها ظلمات الجاهلية الأولى فكانت النتائج أن هبط مستوى التربية ومال ميزان الأمة كلها مع التجهيل المتعمد للمرأة والانتقاص الشديد من حقوقها. (محمد الغزالي، 1997، ص 6-17)

ويضيف حسين العودات عن وضع المرأة من زاوية اجتماعية فيقول أنه "مجتمع ذكوري" ظلم المرأة وتعامل معها دائماً على أنها سلعة أو كالسلعة تباع وتشترى، فيذكر أن القرآن غير موقف العرب من المرأة تغيراً نوعياً، فاعترف بمنزلتها وحقوقها فهي مساوة للرجل بالخلق. (حسين العودات، 1997، ص 8)

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو

و يقول الله عزوجل في قرآنه الكريم " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف " وهذه خطوة مهمة نحو المساواة. وظهر في بداية القرن التاسع عشر تيار معاكس للتيار الإسلامي المحافظ من بين روادها الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي وقاسم أمين وغيرهم فدعوا إلى التعليم البنات وطالبوا بأن يكون التعليم مختلطاً فيرفع من شأن المرأة ودورها في المجتمع ويؤهلها للعمل خارج المنزل.

ونشر قاسم أمين سنة 1899 م كتابا أسماه تحرير المرأة دعا فيه إلى ضرورة الإصلاح " واعتبر التغير شرط الحياة والتقدم " وأشار فيه إلى تلازم انحطاط المرأة وإنحطاط الأمة....وبين إرتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتهما" وهذا ما نقله حلیم بركات في كتابه.

مع هذا مازال نضال المرأة متواصل الى يومنا هذا، بسبب النظام الأبوي المتسلط وضعف القوانين التي تعمل على إبقاء المرأة في وضع دوني وهذا للفهم الخاطئ لتعاليم الدين الحنيف والتخلف والنظام الأبوي الذي مازال قائم في الكثير من البلدان .

و نتوقف عند أهم الأمثال التي تتعلق بالمرأة وكثير منها تسيئ إليها وتقلل من شأنها كإنسان وتدعو للحد من حريتها وحرمانها من حقوقها وحتى لاضطهادها ومن ذلك مايلي:

- البنت لا تأمنها من بيتها لبيت خالها

- أمن للشيطان ولا تأمن للنسوان

- دموع الفاجرات حاضرات

- كل من شافني أرملة شمر واجاني هرولة

- شاور المرأة وخالفها

- عار النساء باقي

- الفرس من خيالها والمرأة من رجالها

حمداني مالية

- المرأة ملاعب الشيطان، النسوان أحبال إبليس
- الرجال عدد والمرأة عدد (الرجال قوة أما النساء فزيادة عدد).
- ظل رجل ولا ظل حيط (أي الرجل هو الذي يعطي المرأة مكانتها الاجتماعية).
- إن حبوك يا ويلك وإن كرهوك يا ويلك.
- المرأة مالها إلا بيتها.

التغيرات المجتمعية وعلاقتها بالمكانة الاجتماعية للمرأة القبائلية اليوم:

من البديهي أن يعرف أي مجتمع تغيرات مجتمعية فهو في سيرورة دائمة وهذا بفضل التطور العلمي والتكنولوجي الذي يفرض على الفرد نمط حياة اجتماعية جديدة وحديثة، لا يمكن أن يتجاهلها.

وعلى هذا تأثرت العائلة الجزائرية والعائلة القبائلية بصفة خاصة، بهذه التغيرات المجتمعية التي انعكست على المكانة الاجتماعية للمرأة، وكما يقول أحمد زكي بدوي حول التغير الاجتماعي: "هو كل تحول يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في بنائه أو في وظائفه خلال فترة زمنية معينة، والتغير الاجتماعي على هذا النحو ينصب على كل تغير يقع في التركيب السكاني للمجتمع أو بنائه الطبقي أو أنظمتة الاجتماعية أو في أنماط العلاقات الاجتماعية أو في القيم والمعايير التي تؤثر على سلوك الأفراد والتي تحدد مكانتهم وأدوارهم في مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينتمون إليها" (أحمد زكي بدوي، د.ت، ص 382)

وعند الحصول على الاستقلال استدعت الظروف المتوارثة مشاركة كل أفراد المجتمع في عملية البناء بما فيه المرأة بإعتبارها عنصراً فعالاً أثبتته التاريخ، فأصبحت للمرأة الجزائرية عموماً والمرأة القبائلية خصوصاً أدوار هامة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

ما كان خروج المرأة للحياة العامة وبالأخص بعد الإستقلال للعمل بالأجرة إلا حين غاب الرجال (شهداء أو مفقودون أو معطوبو الحرب، هجرة...) كما

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو

تقول حليمي (شريفية) "لذا أصبحت مدفوعة في طريق تطوري لم يكن عليها أن تسلكه، إنها الظروف الاجتماعية الصعبة والإقتصادية والنفسية والسياسية التي اضطرتها للخروج إلى ميدان العمل" (حليمي، شريفية، 1999، ص 20)

وطرح عمل المرأة الجزائرية والقبائلية أيضا مشكل تقلص المجالات المتاحة أمامها في هذا الشأن، حيث يتجه نشاط النساء المهني إلى القطاع التعليمي والصحة حيث تصل نسبة تواجد النساء في هذه الميادين إلى 63%. (الديوان الوطني للإحصاءات نشرة رقم 173، 2011) وتقلص النساء العاملات في التجارة والنقل والزراعة بشكل كبير أيضا. ولتشجيع عمل المرأة خاصة في الريف الجزائري ومنطقة القبائل بالخصوص ظهرت في سنوات الأخيرة مشاريع في إطار إدماج المرأة الريفية في التنمية والتي تتمثل في تحويل الصناعات الغذائية "العجائن" والتي كانت بمثابة قفزة لها لضمان استقلاليتها المادية وفرض مكانتها وهذا بالمشاركة في الدخل الأسري كما عبر عن ذلك شلق علي "يعتبر عمل المرأة سواء داخل العائلة أو في المجتمع ضرورة إقتصادية قبل كل شيء. (شلق علي، 1982، ص 339)

و يقول إبراهيم عبد الفتاح " لا يمكن التقليل من أهمية المادة بالنسبة لخروج المرأة للعمل وخاصة أنه كلما إنخفضت طبقة المرأة الاجتماعية كلما كان الدافع الاقتصادي قويا". (إبراهيم عبد الفتاح، 1984، ص 85)

فرغم هذا هناك من النساء اللواتي تلقين معارضة عن العمل من الأهل خاصة من طرف الأزواج، ففكرة ترك البيت شاغراً وتوجه مبكراً للعمل، فكرة لم يتقبلها الرجل في ظل الأسرة النووية إلا بصعوبة كما يقول بوتفنشت مصطفى: "إن العمل الأجير في الحياة المهنية لا يحض دائما بنفس التشجيعات أو التقبل السهل واللامبالاة ضمن العائلة إزاء الفتاة الشابة أو المرأة، فعندما يكون للعائلة موارد مالية ضعيفة، فالشابة هي وحدها القادرة على تضخيم الميزانية بفضل

حمداني مالية

عملها المأجور وبالتالي تساهم الفتاة جزئيا في تحسين الميزانية" (بوتفنوشت مصطفى، 1984، ص 288)

ولهذا لعب الزواج دورا مؤثرا في النشاط المهني للمرأة بحيث يضعف نشاط النساء المتزوجات ليصل إلى 39% بينما يقارب الـ 60% عند الرجال المتزوجين (www.ciddef-dz.com) طرح هذا مسألة استقلالية المرأة في حياتها الزوجية من جهة، وكذا السلطة الذكورية التي يمارسها الزوج أو أم الزوج داخل الأسرة من جهة أخرى ما يصنع قيودا على المرأة العاملة سواء تعلّق الأمر بالعمل أم لا، أو بطبيعة العمل أو بمكان العمل أو أحيانا بفرض لبس "الحجاب"، ومع ذلك فثمة نوعا من التوافق يبرز في الحياة الاجتماعية والعائلية من خلال اعتماد شروط تجعل من الممكن التوفيق بين العلاقات الأسرية والعمل من أجل تفادي الصّراع داخل الأسرة لكن إزداد وضع المرأة تأزما بسبب العمل خاصة اللواتي يسكن في القرى المنعزلة والبعيدة وتعرضت للإرهاق الشديد حيث أصبحت مجبرة على القيام بأدوار متعددة " ففي الوقت الذي تعمل فيه المرأة خارج البيت للحصول على المال اللازم لنفقات الأسرة المتزايدة، ظل دورها كأم ينتظر عودتها من أجل تلبية طلبات الأطفال، إضافة إلى أشغال البيت المعتادة والعناية بالزوج. (بلحاج نادية، 1997، ص 60)

بالإضافة إلى جملة من المشاكل تعترض المرأة الجزائرية والقبائلية، أهمها الصعوبات في الوسط المهني كالنقل والتحرّش وعدم المساواة في الأجر والترقية، ونقص دور الحضانة إضافة إلى تلك المشاكل المرتبطة بالوسط العائلي.

دور التعليم في تغيير مكانة المرأة القبائلية :

أولت السلطات الجزائرية أهمية كبيرة لتعلم المرأة باعتباره يساهم في القضاء على الأمية، كما كان يساهم في التنمية الشاملة. وقد كان للتعليم دورا هاما في ترفيتها ببلوغها مراكز عمل جد هامة (مديرة، معلمة، قاضية ...) وبقدرتها

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو

إستطاعت بقدراتها إختراق المجال الذي كان في وقت ما مجالاً غير مسموح بالنسبة لها، فتمكنت من فرض وجودها في الحياة العلمية والعملية. وقد كانت بدايتها كما أشرنا سابقاً خلال الثورة التحريرية ثم تبوؤها لمقاعد الدراسة مع أخيها الذكروثم العمل. وأنها تمكنت من اختراع مجالات جد صعبة كالمجال العسكري، والمجال الجوي والسياسي.

كل هذه الخطوات كانب بفضل إدماجها في الوسط التعليمي، فقد أدركت أهمية التعليم في التكوين الشخصي للأفراد وبالخصوص إدراكها للأهمية الكبيرة التي يجتئها المجتمع من تعلم المرأة التي تعود بالمنفعة عليها كفرد إجتماعي وعلى المجتمع ككل باعتبارها المشرف الأول على تربية الأولاد. كما حرصت الجزائر على تأنيث المنظومة التربوية أي إدخال أكبر عدد ممكن من البنات في ك المستويات وحتى الأباء أدركوا أن تعليم أبنائهم ضرورة يفرضها تطور المجتمع ولو تطلب الأمر أن تتوقف في الإبتدائي حيث بقول في هذا الشأن كاميل لاكوست دو جردانCamille Coste Dujardin"إن التعليم الإبتدائي ينظر اليه أنه "فوج إجتماعي أصبح ضروريا وإن المدرسة تكوت فضاء القيمة" (La Coste, 1985, p. 33)

فالمدرسة لا تعتبر مؤسسة تربوية فقط بل تعتبر مؤسسة التنشئة الاجتماعية وتعديل وتغير الكثير من المواقف وسلوكات الأفراد فتقول الكثير من الأمهات في منطقة القبائل حين تتحدثن عن التعليم: "قرايا تلهأ، ولاش لمان ثورا قدونيث " بمعنى "التعليم مفيد، لأنه لم يعد هناك أمان في الدنيا" أصبح العلم هوكل شيء في حياة الفتاة القبائلية، بل نجد أن الوالدين يعملان اليوم على توفير كل الإمكانيات لنجاح أولادهمو هذا بادماجهم فيالمدارس الخصوصية،بالإضافة إلى الدروس الخصوصية التي تعطى بشكل مستمر طوال السنة وكل هذا يعبر عن

التحول الإجماعي الكبير للمرأة القبائلية اليوم مقارنة بماضيها، فساهم في تحريرها وإرتقاء مكانتها الاجتماعية في الأسرة والمجتمع.

تأثير وسائل الإعلام في إربقاء المكانة الاجتماعية للمرأة القبائلية:

بعدما بدأت المرأة الجزائرية والقبائلية بالخصوص تتخطى بعض الحواجز والعقبات المطروحة أمامها، إلا أنها بدأت تحتل دورها في عملية التغير. ومن العوامل التي أدت إلى إحداث تغيرات في مكانة المرأة نجد وسائل الإعلام، إذا تعتبر من الوسائل التي لها فاعلية في درجة تأثيرها في عملية التغير الاجتماعي وتطبيع الأفراد على الأفكار الجديدة. واستطاعت وسائل الإعلام المتقدمة أن تتجاوز التوقعات العلمية الخاصة بالدور الذي يمكن لها أن تلعبه في حياة الناس وفي حياة المجتمعات الإنسانية. فوسائل الاعلام وباصنافها المختلفة(التلفزيون والإذاعة بما فيها القنوات الأجنبية، والمقرؤة كالصحف والكتب، وبالإضافة الى الرحلات والسينما) عملت ومازالت تعمل على إيصال للمجتمع صورة المرأة المتحررة والمتطورة والتي أعلنت الحرب ضد التقاليد التي تعيقها. وتشكل التلفزة والإذاعة من أبرز الوسائل الى إستطاعت التأثير في تغير عادات وتقاليد المرأة القبائلية من خلال الإحتكاك بذه الوسائل التي لها نصيبها في التأثير في سلوكياتها وأرائها المختلفة. وهي تعد من أهو وسائل الأكثر إستهلاكاً في الوسط النسوي عامة والقبائلية بالخصوص .

"لقد أتيج لوسائل الإعلام المتقدمة أن تتجاوزت حدود التوقعات العلمية الخاصة بالدور الذي يمكن لها أن تلعبه في حياة الناس وفي حياة المجتمعات الإنسانية. و إستطاعت وسائل الإعلام المعاصر أن تتجاوز مهمتها الأساسية في تحقيق الإتصال بين الناس ونقل المعلومات وأن تتحول إلى عصب الحياة السياسية والاجتماعية والتربوية على نحو تجاوزت فيه حدود التصورات التي تتصل بوظائفها وأدوارها." (أسعد وفلة علي، 1983، ص 173)

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو

الوضعية الاجتماعية للمرأة ضمن قوانين الأحوال الشخصية:

يعكس محتوى قانون الأسرة طبيعة المجتمعات وأوضاع المرأة فيها، ومنذ 1975 بدأ التفكير الجدي في إعداد قانون يحكم الأسرة في بلادنا، وقد تعزز هذا المجهود بصدور الميثاق الوطني، وصدور قانون الأسرة الجزائري في الجريدة الرسمية سنة 1984م . وبناء على ماورد في الميثاق، والدستور أوصت اللجنة أن تكون المصادر المعتمدة عليها : القرآن الكريم، السنة النبوية، الإجماع، القياس، الاجتهاد، الفقه على المذاهب الأربعة .

رغم الأشواط التي قطعتها المرأة الجزائرية بشكل عام والمرأة القبائلية بشكل خاص، وما تنص عليه الدساتير والخطابات الرسمية من مساواة إجتماعية بين الجنسين، إلا أن قوانين الأحوال الشخصية تتسم بالتمييز بين المرأة والرجل كما تتصف أحيانا بالقصور وضعف التكيف وأحيانا أخرى بالتناقض.

إن القانون الذي صادق عليه المجلس التأسيسي في 29 جوان 1963م، والمعروف بقانون خميسي، مثل واحدة من أهم المراحل التي أولت لمكانة المرأة اهتماماً يتجه نحو إشراكها في الحياة العامة وإعطائها فرصة للتعليم، أقر القانون المذكور عدم أهلية الفتاة للزواج قبل سنة 16 عشر، ويعتبر من أهم التدابير التي اتخذها المشرع الجزائري من أجل حماية مصلحة المرأة حتى وإن كان غير مُحترم بسبب هيمنة التقليد من خلال الزواج بالفاتحة وعدم الأخذ بالزواج المدني دائماً، إلا أنه جعل الجزائر من أولى البلدان العربية والإسلامية التي تولي جانباً من الاهتمام إلى سن الزواج. لكن طيلة أربعة عقود من الزمن وأكثر لم يحدث من قبل السلطات العمومية ما من شأنه أن يظهر اهتماماً بإشراك المرأة في مسار التغيير الاجتماعي والاقتصادي الذي كان ينشده النظام السياسي. لقد اقتصر التفكير في هذا الشأن على الخطاب السياسي فقط. نذكر في هذا الصدد ما قاله الرئيس بومدين في خطابه أمام المؤتمر الثالث للاتحاد الوطني للنساء(2) أفريل

1974): " لا تنتظرن أن نفرض تغيير بعض الذهنيات المتحجرة بالقوة...". ويمثل هذا الخطاب تعبيراً عن توجه النظام الحاكم آنذاك نحو سياسة تقوم على نمط أبوي يعترف بحقوق المرأة ويجسدها في نصوصه الدستورية، ولكنه في الوقت ذاته يقف في ممارسة سلطته عند الحدود التي تفرضها "قيم" المجتمع بل وحتى الذهنيات المتسلطة التي يبدو إزاءها النظام السياسي عاجزاً عن أي حراك، حتى أنه ينظر إليها أنها أصبحت أمراً مقضياً.

تعليق:

إن الوسط الاجتماعي الذي ترعرعت فيه المرأة القبائلية غني بالثقافة المحلية من القيم، العادات والأعراف، حيث يتبين بوضوح الاختلاف الموجود بين الرجل والمرأة من خلال المعاملات والسلطة التي يتمتع بها الذكر داخل الأسرة. إن الحديث في موضوع موقع المرأة الجزائرية أو القبائلية في ظل التغيير الاجتماعي والاقتصادي في الجزائر يدفعنا إلى البحث في أهمية الروابط الاجتماعية والعلاقات الأسرية قصد الكشف عن درجة إدماج المرأة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومدى نجاعة مشاركتها. وقد أوضحت الكثير من الدراسات منها دراسة لفريق من الباحثين في المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (Benghabrit-Remaoun, 2006) إلى أنّ النساء الجزائريات يتأقلمن مع مختلف التغيرات الحاصلة في المجتمع، وفي مختلف المستويات الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية ولكن هذا التغيير ما فتئ يصطدم مع مشاكل ترتبط بالتقليد الذي يهيمن (بشكل أو بآخر) في المجتمع الجزائري ولا سيما مع تزايد المد الإسلامي في التسعينيات من القرن الماضي مما أدى إلى تقليص حضور المرأة في الفضاء العمومي وذلك على الرغم من تزايد عدد النساء المتدرسات والطالبات والعاملات. بسبب الذهنيات المترسبة، والتي تقف كحاجز في طريق إدماج حقيقي ومتكافئ للمرأة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية. اعتبر أن تحرر المرأة لا يتم إلا

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو
وفق الاحترام التام للأخلاق الإسلامية وفي الوقت نفسه تستعمل المرأة كأداة من
أجل التمكين للخيار الأيديولوجي سياسيا واقتصاديا وذلك بالتأكيد على فكرة
الإدماج والمساواة.

قائمة المراجع:

1. قائمة المراجع باللغة العربية:

1. إبراهيم عبد الفتاح: سيكولوجية المرأة العامة، دار النهضة العربية، بيروت، 1984.
2. أمينة السعيد: المرأة العربية وتحدي المجتمع : من واقع الغياب إلى حضور مغامر، محاضرات الندوة اللبنانية.
3. أسعد وطفة علي : علم الاجتماع التربوي ، منشورات جامعة دمشق ، 1983.
4. بدوي أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1978.
5. بلحاج نادية: المرأة والوضع الأسري مطبعة المعارف الجديدة الرباط 1997
6. بوتفنوش مصطفى: العائلة الجزائرية، التطور والخصائص الحديثة، ترجمة: دمري أحمد، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1984 .
7. حسين العودات: المرأة العربية في الدين والمجتمع : عرض تاريخي، دار الإجمالي، دمشق، 1996.
8. حليمي شريفة: المرأة العاملة وأساليب التنشئة الاجتماعية، المجلس العربي للطفولة والتنمية ط 1، 1999
9. شلق علي وآخرون: المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت 1982
10. عبد القادر جغلول، قسطون سليم، الطبعة الأولى، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983
11. فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية مع بحث ميداني لبعض العادات، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط 2،
12. قانون الأسرة: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994
13. محمد الغزالي: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة (القاهرة دار المشرق 1992)

المرأة القبائلية في ظل التغيرات الاجتماعية الكبرى - دراسة نموذجية في مدينة تيزي وزو

14. مريم سليم: المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات التحرر، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 1999.
15. حليم بركات: المجمع العربي في القرن العشرين، بحث في تغيير الأحوال والعلاقات، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، جويلية 2000
16. د. نوال السعداوي د هبة رؤوف عزت : المرأة والدين والأخلاق ،دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر،دمشق، سوريا، 2000م.

2. قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

1. Frantz Fanon, Sociologie d'une Révolution (l'an V de la Révolution Algérienne), Paris, François Maspero, 1966.
2. Germain Tilion, Le Harem et les cousins, seuil, Paris, 1982.
3. Germaine Tilion, Harem et les cousins, paris, seuil 1966
4. Hanoteau et letourneux, La Kabylie et les coutumes kabyles, seconde édition, Augustin Challamel, éditeur Paris, 1893.
5. Hanoteau., Poésies populaires de la Kabylie de Djurdjura, Imprimerie, impériale, Paris, 1867.
6. Laura Mauzaia, le féminin pluriel dans l'intégration « trois génération de femme kabyle, ED, Karthala, 2006.
7. Mernissi. F, Le prolétariat féminin au Maroc, Annuaire de l'Afrique du nord. 1980